تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع

للأستاذ عيسى الناعوري
(الأمين العام للمجمع)

ارجوزة ابي نواس الرائية التي يمدح بها الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد والامين ، من القصائد الوعرة ، المغربة في سمويتها الفاظها ، وغريب معانيها . وعسير جدا ان يفهمها قارىء حديث دون ان يلجأ الى قواميس اللغة لتفسّر له غريبها وتعقيدها ؛ هذا اذا استطاعت القواميس أن تشرح ما غمض من المعاني والتراكيب . وهذه ابيات قليلة من اول الارجوزة :

وَبَلْـــدَةٍ فيهـــا زَوَرْ ... مُعراءُ ، تُقْطَعُ في سَكَرْ

مُـرْتٍ ، اذا الذئبُ اقْتَفَـرْ ... بهـا من التـوم اتَـرْ

كـان لـه من الجُـزَرْ ... كلّ جنبيـن : يـا اتْكَـرْ

ولا تَعَـلاهُ شُـعَـرْ ... بَيْتِ النـا من التـرْ

عَسَفْتُهـا على خَطَـرْ ... وغُـبْـرٍ من الـرْ

بِبَـازِلٍ حيـن فَطَـرْ ... تَهْـزُّهُ جِـدُّ الأتَـرْ

وتبلغ القصيدة اثنين وخمسين بيتا ، وعشرة مؤلفة من تفعيلتين ، وكلها من هذا الطراز من الالفاظ والتراكيب العسيرة ، التي لا نعرفها في شعر ابي نواس السهل المأنوس في معانيه الاخرى ، في الخمر والغزل ، ما عدا الطرديات .

ونحن نعرف ان لابي نواس حالتين في الشعر ، تختلف الواحدة منهما عن الاخرى كل الاختلاف : فهو ثائر مجدد ، سهل العبارة ، لطيف المعاني اذا كتب الشعر في الخمر والمجون والحب ، ولكنه وعر اللفظة ، غريب العبارة ، معقّد المعاني اذا كتب في غير ذلك . ونعلم انه كان يلجأ الى هذا النوع من الشعر الخشن الوعر ، لكي يثبت انه على معرفة باللغة لا يسهل ان يجاريه فيها الآخرون ، وانه جدير بأن يُسْتَشْهد بشعره بين اكبر الشعراء . وارجوزته الرائيـــة المنقدمة واحدة من هذه القصائد الموغلة في الصعوبة ، بألفاظها وتراكيبها ومعانيها .

هذه الارجوزة الطويلة المتعسرة في الفاظها وتراكيبها ، تَصَدَّى لها العالم النحوي ابو الفتح عثمان بن جني ، فشرح غامض الفاظها ومعانيها، واعربها لكي يقرّبها الى افهام الدارسين ، ثم قام الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري ، عضو المجمع العراقي العلمي ومجامع اللغة العربيـــة الاخرى ، بتحقيق شرح ابن جني ، وتعليق الحواشي والتعريفات الوافية عليه ، وظهر التحقيق في منشورات مجمع اللغة العربية في دمشق، في طبعة اولى ، ثم اعيد طبعه ثانية عام ١٩٧٩ .

بدا الاخفش بثلمة يعرف بها الكتاب والارجوزة . ويقول في الارجوزة ان « الشاعر اثر فيها الغريب وجاوز فيه الحد » (ص٣) . ويضيف ان « ابا نواس في هذا النوع من شعره ، الذي توفر فيه على الجدّ الصرف ، كان يتعمّد هذا النحى الاعرابي الخالص تعمدا ،ليلفت علماء اللغة اليه ويحملوا به ، او ليظهر لجماهير الادباء اقتداره البالغ على مجاراة شعراء العرب الاولين ، وانه لا ينزل عن طبقتهم ، ان لم يكن فوقهم طبقة ، الى جانب تجديده في اللغة والاسلوب ، والأغراض والمعاني في شعره الحضري » (ص ٤) .

ثم يضيف ايضا ان « محصول ابي نواس من اللغة العربية ... قد بلغ مبلغا يُغَرّ الفحول ، من امثال ابي عبيدة ، والاصمعي ، وابي

عمرو ، وارضى انصار الغريب والمشغوفين به . حتى عمّ بعض ائمة اللغة ان يحتجوا بشعره في كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وفي حديث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لولا ما كان يخالط شعره من الخلاعة » (ص ٥) .

ثم يذكر المحقق ان ابن جني قد استجاب لطلب بعض اصحابه من شداة اللغة في بغداد ، فوضع له هذا الكتاب لينيّر له هذا الشعر الغريب ، ويقول : « ان ابن جني قد سجّل به مرحلة جديدة في كتابة شروح الاشعار القديمة والمحدثة ، وتطويرها بالانتقال بها من طور الوقوف عند تفسير الغريب ، وتدوين اختلاف الروايات ، الى طور التوسّع في هذا التفسير ، وتشقيق الكلام في شتى فنون شتى من المعارف اللغوية والأدبية وغيرها » (ص ٨) .

ثم يورد ما قاله ابن جني نفسه في خاتمة كتابه حول ما قام به من عمل في شرح الارجوزة النواسية ، وهو : « وما رأيت احدا من اصحابنا نشط لتعريب شعر محدث على هذه الطريقة ، لان تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على : لغة ، واعراب ، وشعر ، ومعنى ، وتفسير ، وعروض ، وتصريف ، واشتقاق ، وشيء من علم القوافي » (ص ٨) .

هذا فعلا ما قام به ابن جني في تفسير الارجوزة ؛ وهو جهد موسع الى حد كبير ، يشمل جميع الجوانب اللغوية والادبية من العمل الشروحي ، وما كان يمكن ان يقوم بمثل هذا العمل الا رجل له مثل علم ابن جني في اللغة ، وقواعد صرفها ونحوها ، وبلاغتها وعروضها ، وما الى ذلك .

واذا كان ابن جني قد بذل كل هذا الجهد الموسع في شروح الارجوزة النواسية ، فان الاستاذ الاثري قد بذل كذلك جهدا كبيرا ومشكورا في تحقيق كتاب ابن جني ، واضاف اليه اضافات كثيرة ، بالغة الاهمية ،

تجعل من الكتاب المحقق عملا كامل الجوانب ، بالدراسة الجادة المتعمقة في بحث الراجع ، وتدقيق الاصول ،والتثبت من صحة الكلام المنقول من المخطوطتين المعتمدتين للتحقيق ، ومن نسبة الأمثلة والشواهد الشعرية الى اصحابها . وهو يتحدث عما قام به من جهد في تحقيقه فيقول : « لقد فسّرتُ ما اهمل ابن جني تفسيره ، او جمجم في كشف غامضه ، او اوجز عبارته فأخلّ بمراده ؛ ورقمت الآيات ، وخرجت الاحاديث ، ونقصيت الشواهد الشعرية المستفيضة فيه شاهدا شاهدا، فذكرت مصادر روايتها ، ونسبت ما لم ينسبه ابن جني الى قائله ، واتممت الشطار ، وترجمت لكل من ذكر فيه من الاعلام ترجمات مختصرة ، دللت على كثير من مراجعها ، وفسّرت ما لا بد من تفسيره من غريب هذه الشواهد وغيرها من امثال وردت في هذا الكتاب ، ونبهت على ما وقع لبعض الملقين من المعاصرين على ديوان ابي نواس من تخليط في شرح هذه الارجوزة ، دفعا للاغترار به وتوهّم صحته » (ص ١٦) .

ولم يكتف المحقق بذلك ؛ بل عمد الى كتابة فصل مطول في التعريف بالفضل بن الربيع ؛ وفصل آخر ضافٍ عن حياة ابي نواس وشعره . وقد جاء الفصل الذي كتبه عن الفضل بن الربيع في ثلاثين صفحة من الكتاب (من ص ٢٢ الى ص ٥١) ؛ والفصل الذي كتبه عن ابي نواس في عشرين صفحة (من ٥٢ الى ٧١) . ولقد اهتم المحقق بالجوانب الادبية عامة عند ابي نواس واقاض فيها ؛ وبيّن ان ابا نواس برز فيها جميعا ، وكان من اهم رواة الشعر ، والمجون ، والمُلَح ؛ حتى لقد كان يروي لعشرين ستين امرأة ، وحتى صار — كما يقول المحقق — اغزر الناس حفظا ؛ فكان اهل كل علم وفن يقولون ان ابا نواس اعلم الناس بعلمهم وفنهم . لكنه غلب عليه الشعر فأخذ فيه وبرز على الاقران ، وترك ما عداه ، فُتُرِيَت حظوظه في العلم ، ولم يُذْكر الا شاعرا (ص ٥٨).

ومثلما تحدث المحقق فاقاض عن صلة الفضل بن الربيع بهارون

الرشيد ، كذلك اناس في الحديث عن مسلة ابي نواس بالرشيد والامين ، وكذلك بالفضل بن الربيع .

ثم كتب فصلا ثالثا مطولا عن ابن جني ، جاء في اثنتين وعشرة صفحة من الكتاب ؛ فأشار الى اصله الرومي ، والى ان والده سليمان كان عبدا مملوكا لسليمان بن احمد الازدي ، وزير شرف الدولة قرواش ، امير بني عقيل وصاحب الموصل . ثم اشار في الحديث عن صلته بالعلماء والادباء والشعراء في زمانه ، ولا سيما بأبي علي الفارسي النحوي المشهور ، وعنه اخذ علم النحو ، حتى اذا توفي ابو علي الفارسي ، « تصدَّر ابن جني مكانه ببغداد (سنة ٧٥) وصار الناس يأخذون عنه كما كانوا يأخذون عن ابي علي قبله . وقد وفَّى المحقق الكلام على ابن جني ، ومؤلفاته ، وعلمه ، ومنهله .

هذه الدراسات الثلاث الوافيات ـ اللواتي وسمهن المحقق الفاضل الاثري في القسم الاول من الكتاب ، هي في الواقع جهد علمي مشكور وجدير بالتقدير ، لانها تضيف الى عمل ابن جني سمات الفكر وتحليله ، ويجعله عملا جديرا بالاقتناء المرجعي الوافي ، وحريًّا بالعناية ... ان هذه الدراسات تمثل نصف الجهد الذي بذله المحقق ، واما القسم الثاني فهو الحواشي التي علقها على الكتاب في نصه ، يشرح فيها الكثير مما يحتاج الى شرح ، سواء من الالفاظ الصعبة ، ام من التعريف بالاعلام الواردة اسماؤهم في النص ، ام من الابيات الشعرية الغامضة ، وفي بعض هذه الحواشي تصويب لما يحتاج الى تصويب من الالفاظ والتعابير التي تختلف بين المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما المحقق ، او في المصادر المختلفة التي رجع اليها ، وما الى ذلك من عمل المحقق ، الذي برهن على فطنة ودقة علمية بالغة ، واكثر من ذلك ، على التفاني للعلم ، وحرص على ان يكون العمل المحقَّق وافيا من كل جوانبه ، فلكي يستوثق المحقق من صحة ما ورد في المخطوطتين ، كان لا بد له من

الرجوع الى عشرات المصادر الاخرى ، ويبيّن اختلاف الروايات ، او توافقها ، فيها ، ثم يبدي رأيه في ما يراه اكثر صوابا من بينها .

ثم نجيء بعد ذلك اللاحق ، وتبدأ بـ « المستدركات » ، ثم تصويب الاخطاء ، ثم الفهرست العام ، ثم ثبت بمعاني المفردات الصعبة مرتب ترتيبا هجائيا ، ويقع في الصفحات ٢٢٩ الى ٢٤٦ ، ثم فهرس المسائل ، ويشمل :

١ ـ مسائل علم العربية : النحو ، والصرف ، والاشتقاق .

٢ ـ مسائل العروض والقافية .

٣ ـ مسائل البيان .

٤ ـ مسائل فقهية .

يلي ذلك ثبت بالآيات الكريمة الواردة في الكتاب ، فالاحاديث ، فالامثال ، فالاشعار ، مرتبة كلها ترتيبا هجائيا في تسع عشرة صفحة ، فالأعلام ، فالامم والقبائل والأُسَر والمذاهب ، فالبلدان والامكنة والبقاع . يلي ذلك ثبت بمراجع التحقيق والمقدمة والتعليق ، مرتب ترتيبا هجائيا في تسع صفحات ينتهي بها الكتاب .

هذا في ما يتعلق بعمل المحقق ،

اما ما عمله ابن جني ، فانه يشرحه بنفسه في بداية شرحه الارجوزة النواسية اذ يقول :

« قال الشيخ ابو الفتح عثمان بن جني ، رضي الله عنه : سألتَ ـ اثراك الله ـ ان اعرب لك ارجوزة ابي نواس التي اولها : « وبلدةٍ فيها زَوَرْ » ، وان اشبع الكلام ، وان افسر ما فيها من معنى ولغة واعراب ، واورد في ذلك النظائر . وانا انتهي الى ما سألت ، بادئا

في ذلك بقضاء حق مودتك ، وجاريا على الرسم فيما اعتاد الى معرفتك ، ومنقنعا فائدة الناظر فيها ، والمتسمح ان كان اهل ذلك ، وواعيا بما يتحصل من الفائدة لغير المستحق لها ، ومبينا لك ذلك شيئا فشيئا . والله اسأل ، وعليه اتوكل ، وبه الثقة » (ص١ من النص) .

فهو اذن يفسّر ما في الارجوزة من معنى ، ومن لغة ، ومن اعراب ، ويورد في ذلك النظائر ، كما يقول . واذا كان قد جمع نفائسه عياله في هذا العدد القليل من الالفاظ ، فان العمل نفسه ليس بالقليل النادر ، ولا الهين الذي يستطيع ان يتصدّى له من يشاء ، بل هو عمل يتطلب علما ، واحاطة ، وتعمقا في اللغة بكل جوانبها ، ومباحثها واصولها وقواعده ، كما يتطلب ذوقا ومقدرة ، واطلاعا واسعا . ولنا في العمل من ابي الفتح بن جني على ركوب هذا المركب العسير لا .

وفي ما يلي اقدم مثالا من عمل ابن جني ، من بداية شرحه للارجوزة ، حيث يقول :

« هذه الارجوزة من الضرب الخامس من الرجز ، ووزنها من العروض « مستفعلن مستفعلن » ، الا ان الزحاف يدركها ، فيجوز في مستفعلن « مفاعلن ، ومفتعلن ،وفعلتن » ، وبيتها في خطاب العروض : « يا ليتني فيها جَذَع » . وهذا الضرب يقال له « المنهوك » ، وكان الخليل بن احمد ، رحمه الله ، انما اشتق هذا الاسم من قول العرب : « نهكته الحمى » ، اذا انحفته واذابته . فكأن الرجز ، لما كان اصله ستة اجزاء ، كل جزء منها « مستفعلن » ، ثم لحق البيت ما لحقه من النقص ، فاضافه الى جزءين ، صار حكمه في ذلك حكم من نهكته الحمى وتخوّنت جسمه ... » (ص ٤ — ٧) .

ولم يكتف ابن جني بكل هذه الفوائد الشعرية والعروضية ، بل استمر في هذا الشرح حتى ملأ صفحة اخرى من الكتاب . حتى اذا انتهى

من الشرح العروضي للرجز ، ولهذه الارجوزة النواسية ، مضى الى التعريف بأبي نواس ، صاحب الارجوزة ، بثمانية اسطر من الصفحة (٨ــ٩) وبعد ذلك اورد البيت الاول من الارجوزة ، وهو :

وَبَلْـــدَةٍ فيهـا زُوَرْ مُقْعراءَ ، تُخْطَى في صَـــعَرْ

وبدأ بشرحه على الوجه التالي :

« قوله : « وبلدة » ، قيل في هذه الواو قولان : أحدهما انها للعطف ، والآخر انها مبدئة من (رب) ، فكأنهم انما هربوا من أن يجعلوها عاطفة لانها في اول القصيدة ، واول الكلام لا يعطف . ولا يمتنع العطف على ما تقدم من الحديث والقسم ، فكأنه كان في حديث ، ثم قال : « وبلدة » ، فكأنه وَكَلَ الكلام الى الدلالة في الحال . ونظير هذا قوله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة القَدْر » ، وان لم يَجْرِ ذكر القرآن . وكذلك قوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » ، يعني الشمس ، فاضمرها وإن لم يَجْرِ لها ذكر . وهذا في كلام العرب واسع فاشٍ » (ص ١٠ــ١٢) .

بعد الفائدة العروضية جاء شرح الفائدة النحوية ، ثم تلا ذلك بفائدة ثالثة تتعلق بالصرف ، ومعاني الالفاظ ، فقال :

« وجمع بلدة : بلاد . ونظيره : صحفة وصحاف ، وقصعةوقصاع. ويجوز أن يكون (البلاد) جمع (بلد) ، نحو : جَبَل وجِبَال ، وجَمَل وجِمَال .

« والزُّور : الاعوجاج : ومنه شهادة الزور ، المعدولة عن جهتها . . . ومنه : « قوس زوراء » ، وهي المعوجّة . قال امرؤ القيس :

عارض زوراءُ من نَشَـــم غير باناةٍ على وَتَـــرِهْ

« قال عنترة :

فأزورّ من وَقْعِ القنا بِلَبَانِه وشكا الي بِعَبْرَةٍ وتحمحم

يصف الفرس انه مال عن الطعن » .

هذا نموذج من عمل ابن جني ، يجمع بين الفوائد العروضية ، والنحوية ، والصرفية ، ومعاني الالفاظ . وهو يتمثل لذلك بشواهد من الآيات الكريمة ، والاحاديث الشريفة ، والشعر العربي القديم ، وأمثال العرب ، وكلامهم . وهو اذ يفعل ذلك ، انما يدلّ على غزارة علم ، ورجاحة رأي ، وعلى طول باع في علوم اللغة وآدابها .

واذا كان هذا شأن ابن جني ، وهذا جهده العلمي في هذا الكتاب ، فقد اتيح له من يكمل جهده ، ويضيف اليه جهدا مثله قيمة واهمية ، ويجعله اكثر نفعا واعم فائدة ، وهو محقق الكتاب ، الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري ، جزاه الله خيرا .

عيسى الناعوري